أسلوب الالتفات ودوره في توجيه القراءات القر آنية
دراسة في روح المعاني للألوسي

énallage and its role in directing the Quranic readings
A study in the spirit of meaningsof alusi

صفية طبني 1، *

1 جامعة بسكرة (الجزائر)، safia.tobni@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2022/12/07 **تاريخالمراجعة**:2023/05/14 **تاريخالنشر**: 2023/06/30

ملخص:

الالتفات أسلوب بلاغي بالغ الأهمية وهو نموذج لإعمال الفكر والبحث في أغوار اللغة ، فهو ينبو عن قيمة مستعمله ،والذي يستطيع بأسلوبه هذا تنشيط السامع أو القارئ أو المتلقي وايقاظه للاستماع وبالتالي الاقبال عليه ،وقد عد من صور المجاز ؛لذلك سلط هذا المقال الضوء على هذا الأسلوب من خلال دوره في توجيه بعض القراءات القرآنية في رأي الألوسي ،وقد اهتدينا إلى أن الالتفات يدعو إلى التأمل في حكمة الله تعالى من خلال التأمل في وجوه الكلام الذي جاء به القرآن الكريم المعجز في بلاغته ، فهو يضفي حسنا ولطافة على الكلام ورونقا وجمالا يدل على قوة اللغة وشجاعتها ،وقد يدعو إلى ازدراء حال المخاطَبين وإهمالهم لأن أسلوب الالتفات يقصد به التوبيخ في دلالته في كثير من المواضع القرآنية ، وهو تحد للعرب في بلاغتهم و فصاحتهم

الكلمات المفتاحية: الالتفات ، توجيه ، القراءات القرآنية ، أسلوب

Abstract:

Enallage rhetorical style, which is a model for the realization of thought and research in the depths of language, it means illustrates the value of its User, and its flourishing thinking, promoted an idea, how can it not? The counting of images metaphor; so this article hashighlightedstyle form its role in directing decisions of holy Quran in Alusy's point of view

We have come to the conclusion that paying attention calls for contemplation of the wisdom of God Almighty and the sublime status of the Messenger, and may call for contempt for the state of the addressees and their negligence.

***Keywords**: enallage,directing,Quranic readings,style*

تقديم:

ينتمي أسلوب الالتفات عند أغلب البلاغيين إلى علم المعاني؛ والذي هو تطبيق عملي لفكرة النظم التي شرح بها عبد القاهر الجرجاني إعجاز القرآن الكريم، وهو أن نَتَوخَّى معاني النحو، فنجد المعنى الذي نريد أن نتكلم عنه مكتملا في التركيب واللفظ كذلك الذي نُعَبِّر به عن هذا المعنى، وتتحدد دلالة التركيب بمسار الألفاظ والكلمات المركبة والروابط المختلفة التي تؤدي بنا إلى الفهم، فالألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زِيد في الألفاظ تراكيب جديدة أوجبت زيادة في الدلالات[1]. وبهذا يكون الكلام مطابقا لمقتضى أحوال المخاطبين منظوما بعبارات وألفاظ تُرَاعى فيها قواعد النحو.

* المؤلف المراسل.

وموضوع علم المعاني بهذا واسع المجالات، كثيرة المعارف فيه، ويعزز ذلك أن العلوم التي تبحث في المعاني متحدة في أغراضها، تجول في النفس وتتضح بالعلامات[2].

ويحتل علم المعاني مكانته بين العلوم الأخرى، ويظهر في كونه لصيقا بالقرآن الكريم،فيه عُرِف إعجازه من حُسن السبك ،ورصانة التركيب، ولطيف العبارة، وعلم المعاني يبحث في تراكيب الكلام وأساليبه، واختيار الأسلوب الذي يناسب المقام،وله عدة جوانب يدرسها خاصة منها: التعريف والتنكير، والذكر والحذف، والإظهار والإضمار، وغير ذلك، ولكل أسلوب من هذه الأساليب غرض بلاغي يوصل إليه، ويُراعى فيه حال المخاطب والمعنى المعبر عنه فمقام الحذف يختلف عن مقام الذكر، وليس مقام الإضمار كالإظهار...، وغيرها وكل هذه المسائل بحثها البلاغيون في مجال الإعجاز القرآني ومَثَّلوا لها بالكثير من الصور.

أسلوب الالتفات وتغاير القراءة

الالتفات في اللغة يعني التحول من جهة إلى أخرى، يقال: لَفَتَ وجهه عن القوم: صَرَفه ،واللَّفْت: لَيُّ الشيء عن جهته، ولَفَتُّ فلانا عن رأيه، أي: صَرَفْتُه عنه[3].

وأسلوب الالتفات هو أحد الأساليب التعبيرية البلاغية التي يكثر استخدامها في القرآن الكريم، ولا يختلف في معناه الاصطلاحي عن ذلك المعنى اللغوي الذي هو التحول، ولكن التحول هنا من معنى إلى معنى آخر، فإذا تعددت أوجه القراءات القرآنية انبنى أسلوب الالتفات على تنوع أوجه تلك القراءات وتَغَايُر قراءتها وذلك بتغيير أحرف المضارعة (النون والتاء، والياء)، فهناك مواضع يقرأ فِعْلاها تارة بالنون معا جريا على مقتضى الظاهر، كما يقرأ أولهما بالنون والآخر بالياء تارة أخرى، فيكون ذلك صرفا للكلام على نسقه ووجهه على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وثمة مواضع أخرى يقرأ فعلاها تارة بالياء معا، كما يقرا أولهما بالياء والآخر بالتاء تارة أخرى، فيترتب على ذلك الالتفات من الغيبة إلى الخطاب...وقل أن يترتب الالتفات في القراءات على غير هذه الأوجه القرائية[4].

ويقصد به أن الانتقال من صيغة إلى صيغة إنما يكون من أجل الالتفات ليكتمل أمر الخطاب ، وأن تعدد القراءات القرآنية وتغايرها بين أحرف المضارعة– كما سنرى فيما بعد من أمثلة – يكون أسلوب الالتفات ونعد الكلام إذن أن فيه التفاتا ، وذلك اعتمادا عللا ما يمليه الظاه من القول ، وبالتالي نقول أن الالتفات هو تغاير القراءة بتغاير أحرف المضارعة

ولعل الأصمعي، هو أول من أطلق هذا المصطلح فقد نقل عنه أبو هلال العسكري رواية تدل على ذلك، قال: سأل محمد بن يحي الصولي قائلا له: أتعرف التفاتات جرير؟ فقال: لا. فما هي؟ فأنشد الأصمعي عن جرير قوله:

أتنْسى إذ تُودِّعنا سُلَيمى بعُود بشامة سُقيَ البشَامُ

وقال الأصمعي تعليقا على هذا البيت: ألا تراه مقبلا على شعره، ثم التفت إلى البشام فدعا له[5].

وقد تطرق أبو عبيدة للكلام عن هذا الأسلوب وعده من صور المجاز، وتعتبر طريقة تناوله له هي الطريقة السائدة والمأخوذ بها عند علماء القراءات وتوجيهها طبقا لذلك، فمن أنواع المجاز ما جاءت مخاطَبَته مخاطَبَة

الغائب ومعناه مخاطَبَة الشاهد، ومجاز ما جاءت مخاطبَته الشاهدَ ثم تُرِكت وحُوِّلت مخاطَبَته هذه إلى مُخَاطَبة الغائب[6] وهو شبيه بمعنى الالتفات، أي التحول من حال المخاطَب إلى الغائب أو العكس.

وقد توالت الدراسات حول الالتفات والبحث فيه، رغم أن أغلب الباحثين القدماء يشتركون في الاقتصار على وصف الظاهرة وبيان عناصرها والتمثيل لها دون ذكر مصطلحها الشائع، ودون أن يشيروا أدنى إشارة إلى دواعيها البلاغية وكان هذا سمة عامة حكمت تناول العلماء لظاهرة الالتفات في تلك المرحلة الباكرة من مراحل تطورها[7].

ومن جانب آخر عد الالتفات من صور البديع إذ هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر[8].

الملاحظ أن الالتفات قد تأرجح عند البلاغيين بمفهومه بين البديع والبيان فهو ينسب تارة لمجال وأخرى لمجال آخر، وقد كان أمر هذا التأرجح هينا يسيرا لدى البلاغيين الذين لم تتمايز عندهم- على نحو حاسم- تلك المصطلحات الثلاثة (المعاني، البيان، البديع) ولم يتحدد كل منها بميدانه المستقل ومباحثه الخاصة[9].

وقد ساد هذا المعنى لمدة طويلة حتى بسط ابن جني فيه القول متناولا إياه من جوانب بلاغية، يتجاوز بذلك حدود التوصيف السطحي حيث ذهب في توجيه قراءة "يُرجَعون" في قوله تعالى: {**وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ...**}(البقرة:281)، فقد قرئ شاذا "يُرجَعون" بالياء إلى: أنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى: {**...حَتَّى إِذَاكُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ...**}(يونس:22) غير أنه تصور فيه معنى مطروقا هنا فحمل الكلام عليه، وذلك أنه كأنه قال:"واتقوا يوما يرجع فيه البشر إلى الله"، فأضمر على ذلك فقال: "ترجعون فيه إلى الله"، وقد شاع واتسع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معقود المعنى وترك الظاهر إليه، وذلك كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وإفراد الجماعة، وجمع المفرد، وهذا فاش عنهم، وقد أفردنا له بابا في كتابنا الخصائص ووسمناه هناك شجاعة العربية[10].

لقد تكلم ابن جني عن الالتفات إذن وعده من شجاعة العربية وهو في توجيه الآية السابقة يرجع أسباب القراءة بالتاء أو الياء على الالتفات فهي تتخذ منهجا بلاغيا وقوة إيحائية إلى اختلاف الناس في إيمانهم ومعتقدهم، فالعَوْد إلى الله للحساب –حسب ابن جني- أعظم ما يُخوفه ويُتوعَّد به العباد، فإذا قرئ: تُرجعون فيه إلى الله، فقد خوطبوا بأمر عظيم يكاد يستهلك ذكره المطيعين العابدين، فكأنه تعالى انحرف عنهم بذكر الرجعة فقال: يُرجعون فيه إلى الله، معلوم أن كل وارد هناك على أهول أمر وأشنع خطر فقال: يرجعون فيه، فصار كأنه قال: يُجَازَوْن أو يُعَاقَبون أو يُطالَبون بجرائرهم فيه، فيصير محصوله من بعد، أي: فاتقوا أنتم يا مُطيعون يوما يُعَذَّب فيه العاصون، ومن قرأ بالتاء(تُرجَعُون) فإنه فضل تحذير للمؤمنين نظرا لهم واهتماما بما يَعْقُب السلامة بحَذَرِهم[11].

والالتفات كأسلوب بلاغي يحتكم إلى السياق الذي يوجهه ويعطي له تلك الدلالة التي تنعكس على التركيب من الجانب الفني واللغوي.

وقد اعتمدنا رواية السكاكي حين عد الالتفات من صور المعاني حيث قال: واعلم أن هذا النوع- أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة- لا يختص بالمسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة، ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام

إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن نظرية لنشاطه، وأملا باستدراك إصغائه وهم أحرياء بذلك[12].

ولعل ابن الأثير أكثر الشارحين لفكرة الالتفات والكلام عنها شارحا إياها ومعللها من الناحية اللغوية والبلاغية والعلاقة بينهما مبينا أن حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وعن شماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا.

وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض أو غير ذلك[13].

فقد عد ابن الأثير أن الالتفات مأخوذ من المعنى اللغوي ومن الحركة التي يقوم بها الإنسان عند التكلم بانتقال وجهه من جهة إلى جهة أخرى، ويقسمه ثلاثة أقسام هي:[14]

القسم الأول: ويكون فيه الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

القسم الثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

القسم الثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي.

وابن الأثير بهذا قد وسع مفهوم الالتفات، ففيه يكون تغاير الصيغة وتراوحها بين الأزمنة الماضي والمستقبل.

ونجد تقسيما آخر عند ابن الناظم حين جعله ستة أقسام وهي:[15]

1. من الحكاية إلى الخطاب.
2. نقل الغيبة إلى الحكاية.
3. نقل الخطاب إلى الحكاية.
4. نقل الغيبة إلى الخطاب.
5. نقل الحكاية إلى الغيبة.
6. نقل الخطاب إلى الغيبة.

فالالتفات إذن هو مغايرة الضمائر في الأسلوب بين التكلم والخطاب والغيبة، ويختلف التقسيم بحسب استعمال هذه الضمائر المتغايرة وتداولها في الكلام؛ واللغة العربية تمتاز بطاقات إبداعية تؤهلها لتحويل وتركيب أبنية جديدة وتغيير الأسلوب والصيغة وبتغيير الضمائر بحثا عن معان جديدة وتراكيب فنية أعجز القرآن بها وأبدع في النظم.

أما قيمة الالتفات الفنية أو دلالته وفائدته فهو عند الزمخشري يحقق فائدتين:

إحداهما عامة: -في كل صوره- وهي إمتاع المتلقي وجذب انتباهه بتلك النتوءات أو التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير.

والأخرى خاصة: تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور- في موقعها من السياق الذي ترد فيه- من إيحاءات ودلالات خاصة لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختص مواقعه بفوائد[16].

ويصبح للالتفات بذلك وظيفة تعبيرية خاصة فالغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه[17].

أما الألوسي فقد تكلم عن الالتفات محاولا توجيه بعض القراءات من خلاله ومعللا به الكثير من الآراء فمن أمثلة ذلك ما جاء في تفسيره للسبع المثاني في قوله تعالى: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ و إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**(الفاتحة:5)

يقول: أحسن الالتفات أن يكون النقل من إحدى الصيغتين إلى الأخرى في سياق واحد لمعلوم واحد ولا بيان له على البيان...،[18] ثم يرى أن الالتفات يوسع من الدلالة فيقول: الذهاب إلى فسحة الالتفات والقول بأن قوله الحمد الخ وارد على الشكر اللساني وإياك نعبد مشعر بالشكر بالجوارح، وإياك نستعين مؤذن بالشكر القلبي، أولى من الفرار إلى مضيق القول بالبيان[19].

اللافت أن الألوسي يدرك تماما معنى الالتفات، وهو يذكره بمصطلحه مفرقا أحيانا بين أوجه القراءة والذي تضمنه الالتفات هنا هو: اقتران الوصف المناسب بالحكم اشعارا بالعلية وههنا الصفات بأسرها تضمنت العموم فينبغي أن يكون العموم في الحمد أيضا لأن الشكر يقتضي المنعم والمنعم عليه والنعمة فالمنعم هو الله تعالى والاسم الأعظم جامع لمعاني الأسماء الحسنى ما علم منها وما لم يعلم والمنعم عليه العالمون، وقد اشتمل على كل جنس مما سمى به، وموجب النعم الرحمن الرحيم، وقد استوعب ما استوعب[20].

هذا وقد ذكر الزمخشري أيضا غرض هذا الالتفات فقال: ومما اختص به هذا الموضع: إنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، قيل: إياك يا من هذه الصفات صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به[21].

وليس الاتساع في المعنى هي علة الالتفات وغرضه دائما لأن ذلك يخرجه من دائرة البلاغة ويصبح تناول هذا الأسلوب تناولا سطحيا، فليس ينبغي أن يقتصر في ذكر علة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أن يفعلوه، وهو قولهم إن فيه ضربا من الاتساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ هذا ينبغي أن يقال إذا عري الموضوع من غرض معتمد وسر على مثله تنعقد اليد[22].

وللالتفات أغراض كثيرة حسب السياق فهو يأتي للتعظيم أو التحقير أو التخصيص أو التأكيد وقد تتداخل بعض الأغراض أحدها مع الأخر ويفسر ذلك المقام.

ومن أمثلة ذلك عند الألوسي ما جاء في تفسير قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**(البقرة:146)، يرى أن المراد بـ -يعرفونه- العلماء لأن- العرفان- لهم حقيقة، ولذا وضع المظهر موضع المضمر ولأن –أوتوا- يستعمل فيمن لم يكن له قبول...غاية الأمر: أن يكون ههنا التفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه الصلاة والسلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر، بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التي تستلزم افحامهم، ومن جملتها أنه يصلي إلى القبلتين كأنه قال: "الذين أتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه[23]

والمعنى أن ذكر الرسول -عليه الصلاة والسلام- قد جاء في الكتاب الذي أنزله الله عليهم ، فعرفه علماؤهم و أحبارهم بصفات ذكرت في كتابهم ، وبالتالي ف: يعلمون "هنا للعلماء من هؤلاء القوم ، فهم يعلمون الحق وليس بهم كتمانه، فيكون بذلك الالتفات إلى الغيبة لأنه لم يُذكر المخاطَب

ومنأمثلةالالتفاتأيضاماجاءفيقولهتعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ}**(آلعمران:28)

جاء الالتفات في هذه الآية ليؤدي معنى بلاغيا فالفعل (يتخذ) مجزوم بلا الناهية والمراد: لا يراعوا أمورا كانت بينهم في الجاهلية، بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه الآن مما يقتضيه الإسلام[24].

وقوله تعالى: "**إلا أن تتقوا**" على صيغة الخطاب بطريق الغيبة استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فيه فعل النهي معتبرا فيه الخطاب، أي لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال إلا حال اتقائكم[25].

فالاستثناء هنا أدى دوره النحوي والبلاغي في تخريج معنى الالتفات وقد ساهم أسلوب النهي في توضيح المعنى لأنه عبر عن فصاحة العرب وذلك بكونهم لم يواجَهوا بالنهي ،بل خوطبوا غيابيا حتى ظهرت المسامحة فكان الخطاب موجها

وقد استحسن أبو حيان هذا النوع فهو في غاية الفصاحة، لأنه لما كان المؤمنون نهوا عن فعل ما لا يجوز جعل ذلك في اسم غائب فلم يواجهوا بالنهي، ولما وقعت المسامحة والإذن في بعض ذلك ووجهوا بذلك إيذانا بلطف الله بهم وتشريفا بخطابه إياهم[26].

فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب أحسن في القبول عند السامع، وهو مدعاة للفصاحة التي هي من سمات العرب ، لأنهم كانوا يستحسنون مخالفة الكلام كما يستحسنون مخالفة الأطعمة

ومنه قوله تعالى: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }**(آل عمران:55).

فيحتمل أن يكون الضمير "ثم إلي مرجعكم" لمن اتبع وكفر فقط، وفيه التفات للدلالة على شدة إرادة إيصال الثواب والعقاب بدلالة الخطاب على الاعتناء[27].

فيكون الالتفات من الغيبة في قوله تعالى: "وجاعل الذين أتبعوك إلى الخطاب في قوله: "ثم إلي مرجعكم" على سبيل الخطاب للجميع ليكون الإخبار أبلغ في التهديد وأشد زجرا لمن يزدجر[28].

ومعنى ذلك أن التأويل في قراءة "ثم إلي مرجعكم "وعودة ضمير الجمع على من اتبع وكفر ، يؤدي إلى خروج المعنى إلى الالتفات وذلك لحجة بلاغية وهي ايصال الثواب والعقاب لمن يستحقه من هؤلاء ، لأنه خروج من الغيبة في " جاعل الذين اتبعوك" إلى الخطاب في "ثم إلي مرجعكم" ، فلو كان لفئة معينة لما خرج المعنى إلى المجاز

ومن أمثلة الالتفات التي قام الألوسي بتخريج معناه ودلالته البلاغية في الحكمة الإلهية ما جاء في تفسير قوله تعالى: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى }**(طه:53)

ففي هذه الآية التفاتا من الغيبة إلى الخطاب فمن قوله تعالى: "الذي جعل" إلى المتكلم في قوله تعالى: "أخرجنا له"، يرى الألوسي أن الظاهر أن يقال: فأخرج إلا أنه التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من

الدلالة على كمال القدرة والحكمة بواسطة أنه لا يستند إلى العظيم إلا أمر عظيم والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ينقاد لأمره ويذعن لمشيئته الأشياء المختلفة فإن مثل هذا التعبير يعبر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ويقوي هذا الماضي الدال على التحقيق كالفاء الدالة على السرعة فإنها للتعقيب على ما نص عليه بعض المحققين وجعل الإنزال والإخراج عبارتين عن إرادة النزول والخروج معللا باستحالة مزاولة العمل في شأنه تعالى شأنه[29].

وحسنه هنا أنه بعد أن حج المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل لهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة التكلم المطاع، فإن الذي خلق الأرض وسخر السماء حقيق بان تطيعه القوى والعناصر، فهو يخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء فكان تسخير النبات أثرا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض[30].

وقد أنكر بعضهم أن يكون في هذه الآية التفاتا، فيحمل أن يكون ذلك من تمام كلام موسى-عليه السلام- كأنه يقول: ربي الذي جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى[31] ويحتمل أن يكون ذلك كلام موسى عليه السلام إلى قوله تعالى: "ماء" وما بعده كلام الله عز وجل أوصله سبحانه بكلام موسى عليه السلام حين الحكاية لنبينا ﷺ[32].

إلا أن الألوسي لا يدع مجالا للشك في كون الكلام فيه التفات ذلك أن مرجع الضمير في كلا الاحتمالين واحد، يقول: في قوله تعالى: "**فأخرجنا**" التفات بلا اشباه أو على أن موسى عليه السلام قال ذلك من عنده غير سامع له من الله عز وجل...إلا أن الله تعالى لما حكاه أسنده إلى ضمير المتكلم لأن الحاكي هو المحكي عنه فمرجع الضميرين واحد[33].

ومن أمثلة الالتفات أيضا ما جاء في قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً}**(الأنعام:99)، ففي هذه الآية التفات إلى التكلم من قوله تعالى: "أنزل" إلى قوله تعالى: "فأخرجنا" والالتفات إلى التكلم إظهارا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله،... وأنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجه إليه حتى يخاطب، واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته[34].

ونحوُه جاء قوله تعالى: **{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}**(النمل:60).

ففي قوله تعالى: "وأنزل لكم" التفات إلى خطاب الكفرة، فالألوسي يرى أن الفائدة من هذا الالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى، والإيذان بان أنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد أمر عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل[35].

إذا الفائدة هي إسناد أمر الإنبات إلى الله سبحانه وتعالى وليس لغيره، يقول أبو حيان: "وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة دالا على اختصاصه بذلك، وأنه لم ينبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح إلا هو تعالى: وقد رشح هذا الاختصاص بقوله: "**ما كان لكم أن تنبتوا شجرها**" ولما كان خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء لا شبهة للعاقل في أن ذلك لا يكون إلا بالله وكان الإنبات بما

قد يتسبب فيه الإنسان بالبذر والسقي والتهيئة ويسوغ لفاعل السبب نسبة فعل المسبب إليه، بين تعالى اختصاصه بذلك بطريق الالتفات وتأكيد ذلك بقوله: "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها" ألا ترى أن المتسبب بذلك قد لا يأتي على وفق مراده ! ولو أتى فهو جاهل بطبعه، ومقداره، وكيفيته، فكيف يكون فاعلا لها؟"[36].

وهذا الإسهاب في تفسير الفائدة من الالتفات لا يدع شكا في كونه ظاهرة بلاغية يسند إليها توجيه القراءة، وقد عمد السياق في ذلك إلى توضيح المعنى، كون الإحالات في التركيب تعود في معناها إلى المعنى الذي تقرره الآية والتي تناسب المقام المعروض وهي كلها ترجع إلى نظم القرآن الكريم.

ومنه قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}**(الأعراف:183- 184)

يظهر الالتفات في هذه الآية بانتقال الخطاب والتكلم بنون العظمة إلى التكلم بصيغة المفرد، أي من "سنستدرجهم" إلى ضمير التكلم في "أُملي لهم" يقول الألوسي: "وأملي لهم" أي أمهلهم والواو للعطف وما بعده معطوف على سنستدرجهم غير داخل في حكم السين لما أن الإمهال ليس من الأمور التدريجية كالاستدراك الحاصل في نفسه شيئا فشيئا بل هو مما يحصل دفعه والحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه ليس إلا ويلوح بذلك تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لا بتنائه على تجديد القصة والعزيمة، وجعله غير واحد داخلا في حكمها ولا يخفى التوحيد حينئذ، وقيل: إنه كلام مستأنف أي وأنا أملي لهم، والخروج من ذلك الضمير إلى ضمير المتكلم المفرد شبيه الالتفات واستظهر انه من التلوين[37].

ويواصل الألوسي في تفسير هذه الآية إلى الغوص في مضمون الالتفات من نون العظمة إلى المفرد المتكلم حيث أن المعنى: إن كيدي قوي لا يدافع بقوة ولا بحيلة، والآية حجة لأهل السنة في مسألة القضاء والقدر[38].

وفي ذلك يقول الزمخشري: فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ضانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتغريب وإنما هي خذلان منه وتبعيد فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه[39].

من خلال هذه الأمثلة القليلة نجد الألوسي قد رصد هذه الظاهرة في تفسيره، وقد أخذت حيزا كبيرا، مما جعل العبارات تأخذ أكثر من معانيها نسبة إلى السياق الذي وردت فيه، وبذلك أصبح ظاهرة واضحة، ذلك أن انتقال الكلام من وجه إلى وجه جعله يتنوع بتنوع هذا التغاير.

وكذلك نجد التفاتا في قوله تعالى:**{لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ*فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ*كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ*وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ}**(القيامة: 16- 21)، ففي هذه القراءة بالياء في (تحبون وتذرون)[40] يكون التفات من الخطاب إلى الغيبة وفي رأي الألوسي يكون ذلك أبلغ من حيث إن فيها التفاتا وإخراجا له عليه الصلاة والسلام من صريح الخطاب بحب العاجلة مضمنا طرفا من التوبيخ على سبيل الرمز لطفا منه تعالى شأنه في شانه ﷺ[41].

إذا فقد جاء الغرض من هذا الالتفات الرفق بالرسول ﷺ والتلطف به، أما التوبيخ والتحذير فهو على سبيل الإشارة لأن الرسول ليس معنيا به.

ومن الأمثلة الموجهة للمعنى والتي جاء فيها الالتفات من الخطاب والعدول عنه إلى الغيبة ما جاء في قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ**

لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً}(النساء:64)، ومعناها كما يرى الألوسي: تمهيد لبيان خطئهم باشتغالهم بستر نار جنايتهم بهشيم اعتذارهم الباطل وعدم إطفائها بماء التوبة أي وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى وأمره المرسل إليهم أن يطيعوه لأنه مؤد عنه عز شأنه فطاعته طاعته ومعصيته معصيته أو بتيسيره وتوفيقه سبحانه في طاعته...[42]، والالتفات في هذه الآية متصل بمعناها، فلا يفهم الالتفات إلا إذا فهم المعنى المراد، يرى الألوسي أن معنى قوله تعالى: "**واستغفر لهم الرسول**" وسأل الله تعالى أن يقبل توبتهم ويغفر ذنوبهم وفي التعبير- بـ أستغفر- الخ دون استغفرت تفخيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته على طريق: حكم الأمير بكذا مكان حكمت، وتعظيم لاستغفاره عليه الصلاة والسلام حيث أسنده إلى لفظ منبيء عن علو مرتبته[43].

وهذا يدعو إلى التأمل في حكمة الله تعالى شأنه وبعلو منزلة الرسول ومكانته السامية وبلطف الله تعالى له.

كما جاء الالتفات في قوله تعالى: **{اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ }**(الأعراف:3)، ويكون الالتفات في هذه الآية في قراءة ابن عامر "يتذكرون" بياء تحتية ومثناة فوقية وذال مخففة، وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة ويصبح المعنى حسب الألوسي: اعتراض تذييلي مسوق لتقبيح حال المخاطبين، والالتفات على القراءة المشهورة عن ابن عامر للإيذان باقتضاء سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي، صرف الخطاب عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباتة[44].

وفي هذا المعنى ازدراء ومقت لحال المخاطبين، وفيه حكمة الالتفات التي أخذ بها دلالته والتي فيها إهمال لهم.

خاتمة:

من خلال استقصاء رأي الألوسي في توظيف أسلوب الالتفات نخلص إلى أن الألوسي قدركز على هذا الأسلوب ، وعده أحد الآليات الضرورية لتوجيه تغاير القراءات القرآنية ، وهو مدرك لأهميته سواء البلاغية أم اللغوية ،ولا يجب حصر معنى الالتفات في معنى الاتساع حتى لا ينحصر معناه البلاغي في المعنى السطحي ، ففي الكثير من الحالات يخرجنا الالتفات من سآمة الرتابة في التراكيب اللغوية التي يمل منها السامع عند استمرارية الضمير نفسه ، وهو يحسن ما ألفناه في الأنساق اللغوية:

هوامش وإحالات المقال

[1] ينظر: ابن الأثير، المثل السائرفيأدبالكاتبوالشاعر،تحقيقمحمدمحيالدينعبدالحميد،المكتبةالعصريةصيدابيروت 1411هـ_1990م، 249/2.

[2] سعد أمين الفاخوري، التحليل البنيوي، ط2، باريس عويدات، ص 94.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (لفت)، ج84/2

[4] أحمد سعد محمد، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب، الطبعة 2، القاهرة، 2000، ص 320

[5] أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1984، ص 438.

[6] أبوعبيدة، مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1981، 19/1.

[7] أحمد سعد محمد، التوجيه البلاغي، ص 334.

[8] ابن المعتز، البديع، علق عليه أغناطيوس كراتشوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982، ص 58.

[9] حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، 1998، ص 27.

[10] ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق على النجدي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386هـ، 145/1.

[11] نفسه، 145/1.

[12] السكاكي، مفتاح العلوم،تحقيقنعيمزرزور،دارالكتبالعلمية،ط2 ، 1407هـ 1987م ص 191.

[13] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا بيروت 1411هـ_1990م،3/2

[14] نفسه 3/2 و ما بعدها

[15] ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ص 30.

[16] الزمخشري، الكشاف،عنحقائقالتنزيلوعيونالأقاويلفيوجوهالتأويل،دارالمعرفة،ط3، 1430هـ 2009م 10/1.

[17] ابن الأثير المثل السائر، 165/1.

[18] روح المعاني، 123/1.

[19] نفسه، 123/1.

[20] روح المعاني، 123/1.

[21] الزمخشري، الكشاف، 14/1.

[22] ابن جني، المحتسب، 145/1.

[23] روح المعاني، 18/2، 19.

[24] روح المعاني، 193/3.

[25] نفسه، 195/3.

[26] أبو حيان، البحر المحيط، 442/2.

[27] روح المعاني، 293/3.

[28] أبو حيان، البحر المحيط،تحقيقعادلأحمد،عليمعوض،دارالكتبالعلمية،ط1 ، 1413هـ 1993م 498/2.

[29] روح المعاني، 301/16.

[30] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،الدارالتونسيةللنشر،تونس،1984 238/16،237.

[31] الزمخشري، الكشافعنحقائقالتنزيلوعيونالأقاويلفيوجوهالتأويل،دارالمعرفة،ط3، 1430هـ 2009م، 68/3.

[32] روح المعاني، 300/16، وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق ابراهيم محمد الجمل، دار العلم للتراث، (د.ت)، 639/6.

[33] الالوسي ،روح المعانيفيتفسيرالقرآنالعظيموالسبعالمثاني،دارالفكربيروتلبنان،ط1 ،2003 ، 300/16.

[34] نفسه، 344/7.

[35] نفسه ، 7/20.

[36] البحر المحيط، 84/7 وما بعدها.

[37] روح المعاني، 184/9، 185.

[38] نفسه، 185/9.

[39] الكشاف، 182/2.

[40] وهي قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والحجدري، ينظر، روح المعاني، 245/29، والسبعة ص 661.

[41] روح المعاني، 245/29.

[42] نفسه ، 103/5.

[43] روح المعاني، 103/5.

[44] نفسه، 116/8.

قائمة المصادروالمراجع :

1- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا بيروت 1411هـ_1990م

2- أحمد سعد محمد، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الآداب، الطبعة 2، القاهرة، 2000،

3- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر بيروت لبنان ، ط1 ،2003
4- ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق على النجدي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386ه
5- حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، 1998
6- أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد ، علي معوض ،دار الكتب العلمية ،ط1 ، 1413ه 1993م
7- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،، دار المعرفة، ط3، 1430ه 2009م
8- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ، تونس ،1984
9- ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب
10- ابن المعتز، البديع، علق عليه أغناطيوس كراتشوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982،
11- ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر بيروت (د ت) (د ط)
12- أبوعبيدة، مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1981،
13- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق ابراهيم محمد الجمل، دار العلم للتراث، (د.ت)،
14- سعد أمين الفاخوري، التحليل البنيوي، ، باريس عويدات، ط 2 ، (د ت)
15- السكاكي سراج الدين، مفتاح العلوم،تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، 1407ه 1987م
16- أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1984